

سابق البربري من جديد

عبد الله كنون

- ١ -

في البحث الذي كتبه عن هذا الشاعر الخالد ، موزعا على ثلاث مقالات ، في فترات متباعدة لم أفتأ أوئل أني ربما عدت اليه في كل مقالة منها . وهأنذا أعود إليه فعلا ، بعد مرور فترة طويلة ، على المقالة الثالثة ، لأقول شيئا جديدا عنه وإن قل ، فإن ذلك البحث إنما تكوّن من مثل هذه النتف التي لم أزل أتصيدها من مختلف الكتب المظانّ وغيرها سنين عديدة .

فقد نشر في العراق أخيرا كتاب حماسة الظرفاء لأبي محمد عبد الله بن محمد العبدلكاني الزوزني بتحقيق محمد جبار المعبيد ، وهو يحتوي على بعض شعر سابق مما ذكرته في بحثي المشار إليه ، والذي اعتمده المحقق الفاضل ، وزاد ببعض أبيات منها بيتان يندرجان في قصيدته الرائية المذكورة في المقالة الأولى ، وهما (حماسة الظرفاء ١ : ١٦١) :

وربما جاءني مالا أوئله وربما فات مأمول ومنتظر
من عاش أدرك في الاعداء بغيته ومن يمت فله الأيام تنتصر

ومنها بيت مفرد من قطعة نسبها المؤلف إلى صالح بن جناح وهو البيت الثاني الذي ذكر المحقق أنه منسوب لسابق في كتاب غريب الحديث ..
ونص القطعة كاملة (حماسة الظرفاء ١ : ١٦١ - ١٦٢) :

إذا الواشي لديك بغى صديقا فلا تدع الصديق بقول واش
 فلا تمذل بسرك ، كل سر إذا ماجاوز الاثنين فاش
 ولا تصحب قرين السوء وانظر لنفسك من تقارن أو تماشي
 ومن يرفع عليك الدهر يرفع ومن يخفض فليس بذى انتعاش

هذا ومن ذكر شاعرنا أبو حيان التوحيدي في كتابه الامتاع
 والمؤانسة ، الجزء الثالث ، حين قال : « واعترض حديث العلم فأنشد ابن
 عبيد الكاتب لسابق البربري قوله :

العلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلي سواد الظلمة القمر

ولكن وصف البربري تصحف في الطبع بالزبيري ، والكتاب كما هو
 ثابت في صفحته الأولى مطبوع بتصحيح الأستاذين أحمد أمين وأحمد
 الزين وتحقيقتها ، وذلك مما يدل على الجهالة الفاشية بهذا الشاعر الكبير .
 والبيت المذكور هو من القصيدة الرائية المشار إليها آنفاً .

وذكرنا في المقالة الثانية بيتين من قصيدة لامية طويلة له على
 اختلاف في بعض ألفاظها عما في القصيدة ، كان سفيان الثوري يمثل
 بها ، كما في جامع بيان العلم لابن عبد البر ، وأغفلنا ذكر كون الحسن
 البصري كذلك كان يمثل بها على ما جاء في رواية أخرى لابن عبد
 البر . وثم بيت آخر كان يمثل به الحسن من هذه القصيدة لم يرد فيها ،
 وإنما ذكره ابن عبد البر وهو قوله :

يسر الفتى ما كان قدم من تقى اذا عرف الداء الذي هو قاتله
 ولم تثبته في البحث .

ونسيت أن أنبه في المقالة الثالثة على أن البيت الذي أنشده ابن عبد

البر في كتاب الجامع وأوله : والعلم يشفي ، والآخر وأوله : موتُ التقيّ حياة .. ربما كانا هما والأبيات الستة التي وردت في المقالة الأولى ، من قصيدة واحدة ، لأنها كلها من بحر واحد وهو البسيط وقافية واحدة ، وهي الهمزة المضمومة .

ولايفوتني أن أشير إلى البيت الرجز : قد قيل قبلي في الزمان الأقدم ... وما يحتمل أن يكون من علاقة بينه وبين الرجزية التي أنشدها ابن عبد البر في أدب التعلم والتفقه وهي مما ينسب إلى المأمون .. وفي النفس من هذه النسبة شيء . وقد جعل لها الشيخ مرتضى الحسيني صدرا وذيلا كما بفهرسته ، والسؤال القائم المحتمل هو ألا تكون هذه الرجزية من نظم سابق ؟

ثم نلاحظ أنه بعد نشر بحثنا عن سابق في مقالات ثلاث بأعداد متفرقة من مجلة دعوة الحق ، ثم نشره مجموعا بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وصدر عنه فصلة في شكل كتيب ، وقع الالتفات الى هذا الشاعر والعناية به ، والكتابة عنه وذكره في تاريخ الأدب المغربي كما فعل الأساتذة مؤلفو (تاريخ الأدب والنصوص الأدبية للسنة الدراسية الثانوية ، وفقا للمنهج الحديث الذي أقرته وزارة التربية الوطنية المغربية) ، والدكتور عباس الجراري في كتابه الجديد (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها) والأولون عدّوه مغربيا أقصويا خالصا وذكروه على أنه أول شاعر نبغ في المغرب على عهد الولاة أي قبل العهد الادريسي ، وهو من حيث التاريخ كذلك ولكن من حيث المغربية الاقصوية ، نحن لم نجزم بشيء في ذلك .

والثاني ذكر أننا بعد ماقلنا أنه ربما كان أول شاعر مغربي يعني

بالمعنى الخاص ، عدنا الى القول بأننا لم نتحقق بعد من مغربيته الضيقة ، وليس في كلامنا شيء من الزعم المذكور ، فإننا من أول الأمر ، لم ننسبه إلا إلى المغرب الكبير ولم يتحقق عندنا البلد الذي ينتمي إليه من هذا المغرب لأولاً ولا أخيراً ، ولعل ما كُتب برأس أولى المقالات عنه في دعوة الحق وهو هذه العبارة : « دراسات في تاريخ الأدب المغربي » هو مأوهم الكاتبين أن سابقاً مغربي أقصوي ، أو أننا قلنا بذلك ثم رجعنا عنه ، حسب الكاتب الثاني ، والمسؤولية في هذا تقع على محرر المجلة ، فهو الذي كتب العبارة المذكورة ، وكثيراً ما يتدخل محررو الصحف في مقالات الكتاب بما لا يكون من غرض الكاتب وربما عاكس قصده ، وقد وقع لنا معهم كثير من ذلك ، وهذا منه .

ونخلص من هذا المقال الصغير بزيادة أربعة أبيات على ما أحصيناه في البحث من شعر سابق ، وهو ١٦٩ بيت فيصير الحاصل الآن ١٧٣ بيت والبقية تأتي إن شاء الله .

- ٢ -

نشرنا منذ أيام كلمة عن هذا الشاعر الكبير وصلنا بها ماسبق لنا من بحث عنه وعن شعره في مقالات جمعت في كتيب بعناية المجمع العلمي العربي بدمشق ، واستدركنا فيها بعض المعلومات التي وقفنا عليها من بعد ، وبعض الأبيات الشعرية التي لم تُثبِت في ذلك البحث ، وقلنا في آخرها لعلنا نعود إليه في فرصة أخرى حين يجدّ عندنا ما يحملنا على هذه العودة .

ولم يطل بنا العهد لتحقيق هذا الرجاء ، فقد نشر في العراق كتاب الزاهر لأبي بكر القاسم بن محمد الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨ هـ بتحقيق

الدكتور حاتم صالح الضامن في مجلدين كبيرين وهو في معاني الكلمات التي يستعملها الناس ويعني بذلك اللغة والأمثال . واشتمل هذا الكتاب على ذكر سابق مرتين في مجلديه الأول والثاني ورواية بيتين من الشعر له زائدين على ما ذكرناه له فيما كتبنا عنه . ذلك أن المحقق أورد بحثنا المشار إليه في مصادر تحقيقه لكتاب الزاهر ، واعتبر هذين البيتين مما خلا منها ، كما خلا الزاهر من كل ما نشرناه لسابق من الأشعار .

والبيت الأول يقع عند ابن الأنباري أثناء كلامه على قولهم فلان سفيه بمعنى قليل اللحم وثوب سفيه أي خفيف رقيق ، وأنشد على ذلك بيتاً لذي الرمة ، ثم قال (الزاهر ١ : ٤٩٩) :
« وقال سابق :

سبقت يدك له بعاجل طعنة سفهت لمنفذها أصولاً جوانح
ويروى للصلتان ولزيادة الأعجم ، أراد أسرع الدم منها وبادر
وخفاً » . ولاشك أن هذا البيت من قصيدة طويلة وان يكن متنازعاً
عليه بين سابق وشاعرين آخرين .

أما البيت الثاني فعزاه إلى سابق محقق الكتاب في تعليقه عليه ،
وابن الأنباري لم ينسبه وإنما قال فيه (الزاهر ٢ : ٢٠٩) : « وقال
الآخر :

يانفس إن سبيل الرشده واضحة منيرة كبيض الفجر غراءً »
وجاء في التعليق عليه : « سابق البربري في المذكر والمؤنث لابن
الأنباري ٣٢٠ وليس في شعره » يعني شعره الذي جمعناه له في بحثنا .
وقد أورد الزاهر هذا الشاهد في قولهم : قتل في سبيل الله .

على كل إن كتاباً يقع في أكثر من ١٣٠٠ صفحة لا يرد اسم سابق فيه إلا مرتين اثنتين لدليل على ندرة أخبار هذا الشاعر ، كما يدل على أنه من الذين يستشهد بشعرهم في مسائل العربية لغة ونحوها ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في كتابتنا السابقة عنه . والبيت الأول المتنازع فيه لا يشبه عامة شعره بخلاف الثاني فإنه من مشربه الخاص ، وبذلك فإننا نضيف هذا إلى عدد الأبيات التي نسبناها له باطمئنان ونتحفظ في ذلك ، وإلى فرصة أخرى بحول الله .

- ٣ -

قلنا في آخر مقالة كتبناها عن سابق البربري بعد نشر شعره مجموعاً في كتيب صغير يتكون من المقالات الأولى التي نشرت بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، وتفضل المجمع باخراجها في الكتيب المشار إليه ، معبرين عن أملنا في العثور على شيء جديد له : وإلى فرصة أخرى بحول الله .

وهاهي الفرصة قد أمكنتنا من ذلك ، وكنا في تلك المقالة ومقالة أخرى قبلها استدركنا من شعر سابق خمسة أبيات أو ستة إذا لم نعتبر الشك الذي طرقتاه في أحد هذه الأبيات ، والآن نستدرك بيتاً سابعاً وقفنا عليه في شرح القوائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر الأنباري كذلك الصادر عن دار المعارف في سلسلة ذخائر العرب بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، وهو هذا (شرح القوائد السبع : ٤٦٢) :

فلم ينج منهم في البحور ملجج ولم يُنج من جاب الصخور اجتياها
أورده في الاستشهاد على معنى جاب الصخر أي شقه وبني فيه كما في الآية
الكريمة ﴿ الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ ويلوح عليه أنه من شعر

سابق .

وقرأت في مجلة المستمع العربي (العدد ٣٩٢) للأديب حسن الكرمي
بمقاله المعنون : « قول على قول » هذا البيت منسوباً لسابق :
إن عبت يوماً على قوم بعائبة أمراً أتوه فلا تصنع كما صنعوا
ولم ينسبه إلى أي مصدر ، ولكن الكاتب مطلع يصح الوثوق به^(١) .

ورجعت لكتاب بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب تأليف السيد
محمود شكري الألويسي ، وكنت قرأته قديماً ، وقد وقع في وهلي أنه ذكر
سابقاً ، وبالفعل وجدت اسم سابق في تعليق على الأبيات المعروفة : ابدأ
بنفسك فانها عن غيرها ... نسبها المؤلف للمتوكل الليثي ، وهي مما نسب
لعدة شعراء منهم شاعرنا ، وكان ذلك موجب ذكره من قبل المعلق
صديقنا العلامة محمد بهجة الأثري .

ثم إنه ذكره أيضاً في الكلام على أما بعد وموضعها من الكلام ،
واستشهد بمطلع قصيدة سابق الرائية المذكورة في الكتيب ، وهو الذي
يقول فيه :

بسم الذي أنزلت من عنده السور الحمد لله ، أما بعد ، يا عمر
وأعقبه بالبيت الذي بعده

وأنشده له اليوسي في كتابه زهر الأمم هذا البيت في كتان السر :
فـ لا تخير بسرك ، أي سر إذا ماجاوز الاثني جاشا
وقال : الاثنان هنا الشفتان ، وهو تفسير حسن ، وهذا البيت هو أحد
الأبيات الأربعة التي ذكرناها في المقالة الأولى بعد مقالات الكتيب ، نقلنا
عن كتاب حماسة الظرفاء للزوزني ، وهي في هذا الكتاب منسوبة لغير
سابق ، ولكن المحقق الفاضل لهذا الكتاب قال ان البيت الثاني منها

هو لسابق كما نسب إليه في كتاب غريب الحديث . وهاهو اليوسي ينسبه إليه أيضاً ، وان كان في بعض لفظه مخالفة لما في كتابي الحماسة والغريب . وأمر آخر وهو أن قافيته في الأبيات المشار إليها وفي كتاب الغريب مكسورة ، وفي زهر الأكم مفتوحة ، وجاءت بلفظ جاشا وهي في المصدرين الأولين فاش ، وذلك هو الأنسب من جهة المعنى واللفظ ، فهل ما عند اليوسي تصحيف ؟ ...

الخلاصة أن هذين بيتان جديان يضافان إلى الحصيلة السابقة فيصير جملة ما بيدنا من شعره ١٧٦ أو ١٧٧ بيتاً ، والبقية تأتي ان شاء الله .

- ٤ -

بعد الكتيب الذي ضمنته ما تحصلت عليه من ترجمة هذا الشاعر المغربي الرائد وشعره وصدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق منذ أكثر من ١٥ سنة ، لم أزل أتبع ما يقع لديّ من أخباره وأقف عليه من شعره في مطالعاتي وقراءاتي كما فعلت في مادة الكتيب المذكور خلال سنوات عديدة لتفرق أخبار سابق وضياع شعره الذي كان مدوناً هو وأخباره حسبما يستفاد من فهرس ابن خير الأندلسي ، وقد كتبت عنه بعد ذلك ثلاث مقالات في فترات متباعدة مبادرة بما أظفر به من شعره ولو بيتاً أو بيتين أزفهما للمهتين بمثل هذه الأبحاث وفي كل مرة أقول وإلى فرصة أخرى إن شاء الله .

وهذه مقالة رابعة في الموضوع أثبت فيها بعض الأبيات من شعره لم تأت في الكتيب المشار إليه ولا في المقالات التي كتبتها بعده ، وقد

جاءت في كتاب شعر الفقهاء للدكتور حسني ناعسة نقلا عن كتاب شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي لعبد العزيز الزيد ومحمد الأطرم الذي لم نقف عليه مع الاهتمام بطلبه من الجهات التي صدر عنها ، وصاحب هذا الكتاب قد اطلع على ما جمعناه من شعر سابق وأثبت بعضه في كتابه مشيراً إلى مصدره على طريقة العلماء .

والمهم أن ما انفرد به هذا الكتاب عن كتيبتنا من شعر سابق هو خمسة أبيات لا غير ثلاثة منها بحسب ما يظهر هي من قصيدته الرائية الطويلة التي رويناها بنصها الكامل عن كتاب مناقب عمر بن عبد العزيز للحافظ ابن الجوزي ، أولها قوله :

لكل بيت خرابٌ بعد جدته ومن وراء الشباب الموت والكبرُ
وقد أنشد قبل البيت الذي أوله : والموت جسرٌ والثاني والثالث لم يعين موضعها وهذا نصها :

مالي أرى الناس والدينا مولية وكل جبل عليها سوف ينبتر
لا يشعرون بما في دينهم نقصوا جهلاً وان نقصت دنياهم شعروا⁽²⁾
والبيت الرابع نرجح أنه من قصيدة طويلة هي التي روينا منها قطعة من حماسة الجراوي وأخرى من شرح المقامات الحريرية للشريشي وثالثة منه أيضاً ، وهو هذا :

وكل نفس لها زورٌ يصبّحها من المنية يوماً أو يُمسيها⁽³⁾
والخامس هو هذا :

متى تكونوا على منهاج أولكم وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا⁽⁴⁾
والغالب أنه من الرائية الطويلة وأخرنا إirاده لنورد تعليقاً عليه للمؤلف يقول فيه :

« وما يلفت النظر في شعر سابق تفاوت مستواه ولا أعني التفاوت المؤلف في نتاج كل شاعر وإنما أعني أن يجزم المضارع بعد متى الاستفهامية » وكان من حق الشاعر على المؤلف أن يُخَرِّج قوله على وجه معروف كحمل متى الاستفهامية على الشرطية الجازمة وإن لم يكن هناك شرط ، أو على أنها شرطية جازمة والجواب محذوف والوجه الأول ورد في أقوال النحاة تخريجاً لقراءة ابن محيصن قوله تعالى ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ بضم الميم وإلغاء عمل أن حملاً على ما المصدرية وأنشدوا عليه قول الشاعر :

يا صاحبي فدت نفسي نفوسك ما وحيثما كنتما لقيتما رشدا
إن تحملنا حاجة لي خف حملها تستوجبا منة عندي بها ويدا
أن تقرآن على أسماء ويحكما مني السلام وأن لاتشعرا أحدا
فرفع تقرآن مع دخول أن عليها ، ولانسى أن سابقاً هو ممن يحتج به عند علماء النحو ، وهناك شاهد آخر لإلغاء عمل أن هو قول الراجز :

فيسا الغلامان اللذان فرا
إياكما أن تكسبان شرا⁽⁵⁾

.. ثم ان المؤلف سأل الله تعرض لبعض المؤاخذات بحسب نظره تتعلق بتباعد مخارج الحروف في البيت الآتي :

لكم بيوت بمستن السيول وما يبقى على الماء بيت أسه مَدْرُ
وقال : .. « وهذه الهفوات اللغوية والفنية إذا لم يكن لتحريف الناسخين فيها نصيب تؤيد مغربية سابق ، وقد يمكن أن يستنبط منها أنه لم يقل الشعر قبل وفادته الشام (كذا) واتقانه العربية » ومعنى هذا الطعن في عربية المغاربة وجهلهم بحيث إذا لم يفدوا على المشرق لا يعتد بعربيتهم ،

ومع أن العربية هي من المشرق لكن الأمر فيها بعد انقراض عصر السليقة صار سواء بالنسبة إلى المشرق والمغرب معاً ، وقد كان من المغاربة من حفظوا على المشاركة في بعض الأحيان علم العربية كابن مالك وأبي حيان وابن عصفور والشلوبين وغيرهم . وكانت مقدمة ابن آجروم هي ألف باء النحو في المشرق والمغرب عبر عدة قرون .

ويضافة الأبيات الخمسة التي اشتملت عليها هذه المقالة يصير ماعندنا من شعر سابق ١٨٢ بيتاً وإلى اللقاء إن شاء الله .

- ٥ -

كانت العودة إلى سابق البربري في هذه المرة أقرب مما نظن ، فقد كنا وقفنا على كتاب بهجة المجالس وأنس المجالس للحافظ ابن عبد البر في طبعته المصرية التي إنما وصلنا منها الجزء الأول وقد ألم ببعض أبيات من شعره ولكننا آثرنا الانتظار حتى يأتينا الجزء الثاني منه أو على الأصح بقية الكتاب فطال انتظارنا وهاهو الكتاب يأتينا كاملاً في ثلاثة أجزاء من طبع بيروت بتحقيق الأستاذ محمد مرسي الخولي وبعد تصفحه وجدناه يحتوي على سبعة عشر بيتاً مما لم يتقدم له ذكر في المجموعة الأولى وفي المقالات التي تلتها من بعد فضلاً عن خمسة أبيات وقع الإلمام بها في المجموعة وما ألحق بها^(٦)

وهذا العدد الكثير في الجملة من شعر سابق الذي احتواه كتاب ابن عبد البر يدل على أن ديوان شعر سابق كان موجوداً بالأندلس حسبها علمنا من فهرس ابن خير وروايته له على ما أشير إليه في المجموعة المنشورة بعناية مجمع دمشق إلا أن هذا العدد المذكور من أبيات شعر سابق إنما يتمحض له منه بغير نزاع تسعة أبيات ، أما الثانية الباقية فهي من قصيدة قافية يقول محقق الكتاب إنها لصالح بن عبد القدوس ذكرها له ياقوت في معجم الأدباء^(٧) .

ولاشك أن ابن عبد البر إنما نقلها من ديوان سابق فهي من الشعر
المختلف في نسبه .

ونذكر أولاً الأبيات التسعة التي لانزاع في نسبتها إلى صاحبنا سابق مما
نسبه إليه ابن عبد البر وهي أربعة مائة يقول فيها :

يا أيها الظاعن في حظه (و) (١) إنما الظاعن مثل المقيم
كم من لبيب عاقل قلب مصحح الجسم مقلّ عديم
ومن جهول مكثّر ماله ذلك تقدير العزيز العليم
حظك يأتيك وإن لم ترم ماضراً من يُرزق الأيريم
وبيت مفرد هو :

جنى الضغائن أباء لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء أبناء
ويظهر أنه من قصيدة همزية من بحر البسيط سبق أن ذكرنا منها أبياتاً
متفرقة ، وبيت آخر مفرد هذا نصه :
وتأخير ما يرجى بلاء مبرح وأفضل ما يرجى من الخير عاجله
ولعله من القصيدة التي رويناها عن ابن عساكر على هذا الوزن وبهذه
القافية ، وهذان البيتان :

لسانك للدنيا عدو مباين⁽⁸⁾ وقلبك فيها لللسان مباين
وماضرها ماقلت فيها وقد صفا لها منك وُدّ في فؤادك كامن
ونرى أنها من قصيدة بهذا الوزن وهذه القافية ذكرنا منها في المجموعة
عدة أبيات ، وأخيراً بيت مفرد هو :

(١) الواو ساقطة في الأصل ولا بد منها لإقامة الوزن .

جمعت لها أكلا وذمما بألسن أليس عجيباً ذمها واحتلابها
ويظهر أنه في الدنيا وتعلق الناس بها مع ذمها ، ولا يبعد أن يكون من
قصيدة لم يصلنا منها الآن إلا هذا البيت ، والبيت السابق عن شرح القصائد
السبع الطوال لأبي بكر الأنباري .

أما الأبيات القافية المحتمل أن تكون له ولصالح بن عبد القدوس فهي
مع المطلع :

ويظل يرقع والخطوب تمزق	المرء يجمع والزمان يفرق
من أن يكون له صديق أحق	ولأن يعادي عاقلاً خير له
بالجد يرزق منهم من يرزق	والناس في طلب المعاش وإنما
ألفيت أكثر من ترى يتصدق	ولوانهم رزقوا على أقدارهم
قدمات من عطش وآخر يفرق	مالناس إلا عاملان فعامل

وإذا يسافر فالترفق أوفق	إن الترفق للمقيم موافق
لم يلقها إلا الذي يترفق	لو سار ألف مدجج في حاجة

لألفينك ثاويماً في غربة إن الغريب بكل سهم يرششق

بقي مما ذكره ابن عبد البر في كتابه هذا من شعر سابق الذي تقدم لنا
الإمام به بيتان من القطعة الشينية التي أولها :
إذا الواشي بغى يوماً صديقاً .

وثلاثة أبيات من القصيدة الزهدية التي أوردنا منها قطعاً متفرقة عن حماسة الجراوي وعن الشريشي وهي من بحر البسيط وقافية الياء والهاء .
وباعتبار القطع القافية التي قيل أنها من قصيدة لصالح بن عبد القدوس ، من شعر سابق ، وهي شديدة الشبه بنفسه واسلوبه وقد نسبها إليه الحافظ ابن عبد البر وكلا الشاعر والراوي متقدم على صالح وياقوت (7) ،
يصبح معنا سبعة عشر بيتاً أخرى من شعر سابق نضيفها إلى ما ذكرناه قبل فنخرج بتسعة وتسعين ومئة بيت (١٩٩) والبقية تأتي إن شاء الله (9) .

التعليقات

الدكتور شاكراً الفحام

(1) هذا البيت الذي جاء في مجلة الممتع العربي كان الأستاذ الكريم عبد الله كنون قد أوردته في مقالته الأولى المنشورة في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مج ٤٤ : ٢٣) ، وذكر أنه مما أنشده البحري لسابق البربري في حماسته .

(2) أورد الأستاذ عبد الله كنون رائية سابق البربري من كتاب مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، وكانت عدة أبياتها (٤٤) بيتاً .
وقد عدتُ إلى كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، الذي حققه الأستاذ محب الدين الخطيب (ط القاهرة ، سنة ١٣٣١ هـ . ق - ١٢٩١ هـ . ش) ، وقد وردت رائية سابق البربري في الصفحات (١٤٢ - ١٤٤) ، فوجدتُ أن عدة أبياتها (٤٧) بيتاً ، منها الأبيات الأربعة والأربعون التي سردها الأستاذ كنون . أما الأبيات الثلاثة الباقية فأولها :

وكل بيتٍ خراباً بعد جدّته ومن وراء الشباب الموتُ والكبرُ
وموقعه بعد البيت السابع والعشرين في رواية الأستاذ كنون الماثلة في
ترتيبها لرواية القصيدة في كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز .
وأما البيتان الباقيان فهما :

مالي أرى الناس والدنيا مولية وكل حبل عليها سوف ينبترُ
لايشعرون بما في دينهم تقصوا جهلاً وإن تقصت دنياهم شعروا
وقد ورد هذان البيتان في ختام قصيدة سابق .

أما الحافظ أبو القاسم بن عساكر فقد كان جملة مارواه من رائية
سابق أحد عشر بيتاً ، عشرة منها مما جاء في الرائية التي سردها الأستاذ
كنون ، وإن اختلف بعض ألفاظها . أما البيت الذي لم يرد له ذكر في
الرائية فكان البيت الأخير الذي خُتمت به قصيدة سابق الواردة في كتاب
سيرة عمر بن عبد العزيز . وقد أشار الأستاذ كنون إلى تفرد ابن عساكر
بهذا البيت وأنه لم يرد في الرائية التي أوردتها (مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ، مج ٤٤ : ٣٦) .

وجاء في جزء منتقى من معجم مشايخ أبي الحسين أحمد بن حمزة بن
علي (مخطوط الظاهرية ، مجموع رقم ٣٨٤٦ ورقة ٢١٩) عشرة أبيات من
رائية سابق المذكورة كان ختامها البيتين المذكورين :

مالي أرى الناس والدنيا مولية وكل خير عليها سوف ينبترُ
لايشعرون بما في دينهم تقصوا جهلاً وإن تقصت دنياهم شعروا
(3) صدق ظنّ الأستاذ كنون ، فالبيت المذكور هو من قصيدة
طويلة في الزهد ، أورد الأستاذ منها سبعة عشرة بيتاً ، خمسة منها من
كتاب صفوة الأدب ، وستة منها من شرح المقامات للشريشي ، فإذا

أسقطنا منها بيتاً سبق ذكره في الخمسة الأولى ، كان مجموع ما بقي عشرة أبيات ، يضم إليها الأبيات الخمسة التالية ، وبيتان جاء بها الأستاذ في آخر مقالته الثالثة السابقة (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٤٤ : ٢١ - ٢٢ ، ٤٣ - ٤٤) . وقد أورد صاحباً شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي (ط ١٩٧٢ م) : أبياتاً من هائية سابق هذه عدتها ستة عشر بيتاً . منها بيتان لم يوردهما الأستاذ كنون في مقالته الأولى ، واستدرك في مقالته الجديدة الثاني منها ، وهما :

فلا الإقامة تنجي النفس من تلفٍ ولا الفرار من الأحداث ينجيها
وكل نفس لها زورٌ يصبحها من المنية يوماً أو يمسيها
وأشار جامعا الكتاب إلى مصدر البيتين ، وأنها استمداهما مع أخوين لهما من كتاب روضة العقلاء لابن حبان ، الذي أورد الأبيات الأربعة دون نسبة .

ومن غريب المصادفات أن علماء العروض والقوافي قد أثرت طائفة منهم أن يوردوا في كتبهم بيتاً أو بيتين من هائية سابق البربري حين يضربون الأمثلة للهاء التي لا تكون إلا رويماً لسكون ما قبلها . ويزيد بعضهم فيجد في البيتين شاهداً لجواز وقوع الواو رديماً في بعض أبيات القصيدة الواحدة والياء في بعضها الآخر . قال الأخفش في كتاب القوافي (بيروت ١٩٧٤ م) : ٨٧ - ٨٩ « فإذا سَكَنَ ما قبل الهاء التي للاضمار والتي للتأنيث كنّ رويماً ، ولم يكن وصلًا ، لأن الساكن لا يكون له وصل ، إنما الوصل للحرف المتحرك يولد مثل حركته وقال :

قسُ بالتجارب أغفال الأمور كما تقيس نعلًا بنعل حين تحذوها
وقال :

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنينا

فجمع الواو والياء ، لأن الياء ساكنة . ولا يكون للساكن وصل ولا مجرى »

وقد خرج محقق الكتاب الأستاذ الصديق أحمد راتب النفاخ البيتين فقال : « البيتان لسابق البربري من أبيات في فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري ، والأول مع آخر في تهذيب تاريخ ابن عساكر ، والثاني مع أبيات من القصيدة في شرح المقامات للشريشي ، والبيت الثاني وحده في كتاب القوافي لابي يعلى التنوخي » .
وقد أورد الدمنهوري في حاشيته على متن الكافي في علمي العروض والقوافي (ص ٨٩) البيتين معاً .

والبيت الثاني في شمس العلوم ٢ : ١٦٩ (ذراً) .

(4) هذا البيت ليس جديداً ، بل أورده الأستاذ عبد الله كنون حين سرد أبيات الرائية من كتاب مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، وهو آخر بيت فيها (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٤٤ : ٢٥) ، ولكن البيت جاء محرفاً في مطبوعة المجمع ، كما جاءت الكلمة الأولى منه محرفة في النص الوارد في كتاب شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي . وصواب البيت ، على ما يقتضيه السياق ، يوافق ما جاء في كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص : ١٤٤) :
حتى تكونوا على منهاج أولكم وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا
ولم أستبن السر الذي حدا بجامعي شعر الدعوة الإسلامية أن يبدل ترتيب
الآيات الذي ورد في كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .
(5) أورد النحاة في كتبهم هذين البيتين المشطورين من الرجز شاهداً على الجمع بين حرف النداء وبين الألف واللام للضرورة .

(6) لعل الأدق أن يقال : « فضلاً عن عشرة أبيات وقع الإمام بها في المجموعة وما ألحق بها » .

لقد ذكر الأستاذ الكريم عبد الله كنون الأبيات التسعة التي لانزاع في نسبتها إلى سابق ، ثم ساق بعدها الأبيات الثانية القافية التي نسبت إلى سابق البربري وصالح بن عبد القدوس .

وبدأ بعد ذلك يعدد أبيات سابق التي أوردها ابن عبد البر مما سبق الإمام به ، فذكر بيتين من القطعة الشينية ، وثلاثة أبيات من القصيدة الزهدية الهائية . وأغفل بيتي سابق البربري على روي الباء (بهجة المجالس / ط مصر ، ١ : ١١٣ - ١١٤) ، وأبياته الثلاثة على روي العين (بهجة المجالس ٢ : ٣٣٧ - ٣٣٨) . وهذه الأبيات الخمسة مما سبق الإمام به في مقالة الأستاذ كنون الأولى (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٤٤ : ١٩ ، ٢٦) .

(7) الأبيات القافية الثانية التي رواها ابن عبد البر في بهجة المجالس لسابق البربري ، علق عليها المحقق الأستاذ محمد مرسي الخولي ، رحمه الله وأفاض عليه سحائب رضوانه ، فذكر أن ياقوتاً الحموي نسبها في معجم الأدباء (١٢ : ٧ - ٨) إلى صالح بن عبد القدوس (بهجة المجالس / ط مصر ، ١ : ١٩١ هـ ٢ ، ٢٢٠ هـ ١ ، ٢٢٣ هـ ١) ، ونقل الأستاذ عبد الله كنون ذلك عنه وكأنه قبله ، فذكره أولاً ثم أعاده في ختام كلمته ثانياً .

وإن العودة إلى ترجمة صالح بن عبد القدوس في معجم الأدباء (١٢ : ٦ - ١٠) لتوضح أن ياقوتاً لم يرو في معجمه من القافية بيتاً قط . كل ما في الأمر أن محقق معجم الأدباء قد نقل في حاشية المعجم

ترجمة صالح بن عبد القدوس من تاريخ بغداد ، وتضمنت تلك الترجمة أبيات صالح بن عبد القدوس القافية التي روى ابن عبد البر أبياتاً منها ونسبها إلى سابق البربري . فالأبيات القافية من مرويات الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد . قال : « ومن مستحسنت قصائد صالح القصيدة القافية . أنشدناها عبيد الله بن أبي الفتح وأحمد بن عبد الواحد الوكيل قالوا : أنشدنا محمد بن جعفر بن هارون التيمي الكوفي قال : أنشدنا أبو بكر الدارمي عن عمه لصالح بن عبد القدوس :
 المرء يجمعُ والزمان يفرِّقُ ويظل يرقع والخطوبُ تمزق ... »
 وسرد الخطيب البغدادي ثمانية عشر بيتاً من قافية صالح ، وأعاد ذكر بيتين منها برواية ثانية . ومن هذه القافية أورد ابن عبد البر ثمانية أبيات نسبها إلى سابق البربري (بهجة المجالس ١ : ١٩١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٥٣٨) .

(8) الرواية في بهجة المجالس (٢ : ٢٨٦) :

لسانك للدنيا عدوٌّ مشاحن وقلبك فيها للسان مباينُ
 (9) أورد ابن عبد البر في بهجة المجالس (١ : ٤٥٤) نصف بيت من البحر الطويل لسابق وهو :

وقبل أوان الرمي تملأ الكنائنُ
 وعلق المحقق الأستاذ الخولي بأن هذا الشطر قد جاء في كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي (ص ١٥٢) ، وروايته فيه :

وقبل نزول الحرب تملأ الكنائنُ
 وقول سابق هذا إنما يتضمن قول العرب : قبل الرماء تملأ الكنائنُ ،
 وقولهم : قبل الرمي يراش السهم ، ومنه قول رؤبة :
 قبل الرماء يملأ الجفيرُ

انظر : الأمثال لأبي عبيد : ٢١٥ ، مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٤٧ ، لسان العرب - رمى ، ولم أجد البيت المنسوب إلى رؤبة في ديوانه .

(تمة)

- ذكر الأستاذ عبد الله كنون في مقالته أنه لم يُتَح له الاطلاع على كتاب « شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي » ، وتلك هي القطيعة الثقافية التي يعاني منها العلماء العرب ، يبحثون عن الكتاب وينقرون دون طائل ، على حين تجد كل شيء في الغرب ميسراً سهلاً مقرباً . دع عنك سيل المعلومات التي يوافيك بها الحاسوب في الغرب فإذا أنت بالغ مرادك من معرفة المصادر والمراجع في دقائق - ويفني الفتى العربي الأيام والشهور وهو يلاحق المصادر ، والكتب ، ليجث عن ضالته ، وما أكثر ما يقرأ دون أن يعثر على طلبته .

في خزانة مجمع اللغة العربية أربعة أجزاء من شعر الدعوة الإسلامية : أولها خاص بعهد النبوة والخلفاء الراشدين ، جمعه عبد الله بن حامد الحامد ، وطبع عام ١٩٧١ م ، عدد صفحاته مع الفهارس (٦١٣) صفحة . وثاني الأجزاء خاص بالعصر الأموي ، جمعه عبد العزيز بن محمد الزير ومحمد بن عبد الله الأطرم ، وطبع عام ١٩٧٢ ، عدد صفحاته مع الفهارس (٥١١) صفحة . أما الجزء الثالث فخاص بالعصر العباسي الأول ، جمعه عبد الله عبد الرحمن الجعثن ، وطبع عام ١٩٧٤ م ، عدد صفحاته مع الفهارس (٣٤٧) صفحة . ويأتي الجزء الرابع خاصاً بالعصر العباسي الثاني ، وقد جمعه عائض بنّيه الرّاددي ، وطبع عام ١٩٧٢ م ، وعدد صفحاته (٢٩٣) صفحة .

« شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي »

اشتمل كتاب شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي على مقطوعة
وثلاث قصائد لسابق البربري :

(١) أما المقطوعة فهي العينية ذات القافية المقيدة المجردة ، وعدد أبياتها خمسة . ومصادرها : سيرة عمر بن عبد العزيز ، وحلية الأولياء ، وتهذيب ابن عساكر ، والبداية والنهاية لابن كثير .
والمقطوعة بأبياتها الخمسة مملواه الأستاذ عبد الله كنون ، بل انه رجّح إضافة بيتين : سادساً وسابعاً لها (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٤٤ : ٢٦ ، ٣٥) .

(٢) ثم تأتي القصيدة الرائية (مرفوعة الروي ، من البحر البسيط) ، وعدد أبياتها في الكتاب (٤٦) بيتاً ، ومصادرها : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ومختصرها ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر ، وشرح المقامات ، وأشار الجامعان إلى الخبر الذي ورد في حلية الأولياء وسيرة عمر بن عبد العزيز ، وأضافا أن بيتاً منها أورده البحري في حماسه وأن البيتين الأول والثاني قد جاءا في كتاب الأوائل .

ولفت نظري في التعليق على المصادر أمر عجيب ، وهو أن الجامعين ذكرا أن سيرة عمر بن عبد العزيز قد أخلت بيتين (٢١ ، ٣٩) وهما (حسب ترتيب القصيدة الذي ارتضاه الجامعان) :

٢١ وكل بيت خراب بعد جدته ومن وراء الشباب الموت والكبر
٣٩ ثم اقتدوا بالألى كانوا لكم غرراً وليس من أمة إلا لها غرر
وهما قد عادا إلى سيرة عمر بن عبد العزيز التي بين يدي ، والتي قدمت وصفها في التعليق رقم (٢) . إن أبيات سابق البربري في السيرة ، كما

ذكرتُ آنفاً (٤٧) بيتاً كاملة ، منها البيتان السابقان ، وترتيبهما في القصيدة الواردة في سيرة عمر : الثامن والعشرون والرابع والأربعون . أما البيت الذي أسقطاه من القصيدة فهو :

وكل شيء له حال تغيره كما تغير لون اللثة الغير
وترتيبه في القصيدة الخامس عشر .

وقد أضاف الأستاذ كنون إلى هذه الأبيات بيتين آخرين استقاها من كتاب حماسة الظرفاء (١ : ١٦١) .

- ويحسن أن أشير هنا إلى أن الدكتور سامي مكي العاني قد عرض لرؤية سابق البربري في كتابه (الإسلام والشعر - الكويت ١٩٨٣ م) وذكر (ص ٨٧) أن عدد أبياتها ستة وأربعون بيتاً ، وكان مرجعه كتاب سيرة عمر بن عبد العزيز الذي بينا آنفاً أن عدة الأبيات الواردة فيه (٤٧) بيتاً .

(٣) وتأتي بعد ذلك القصيدة اللامية (مرفوعة الروي ، موصولة بالهاء الساكنة) ، وعدد أبياتها في الكتاب (٣٤) بيتاً ، ومصدرها تهذيب تاريخ ابن عساكر .

وقد روى الأستاذ عبد الله كنون في مقالته الأبيات الأربعة والثلاثين من تاريخ ابن عساكر (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٤٤ : ٣٧ - ٣٩) . بل لعله أضاف إليها بيتين آخرين في مقالته الجديدة . - أما الدكتور سامي مكي العاني ، وقد عرض للامية سابق البربري في كتابه (الإسلام والشعر) ، فقد ضمَّ إليها بيتين استمدهما من كتاب (التوايين) لموفق الدين بن قدامة المقدسي وهما :

وكيف يلذ العيش من هو عالم بأن إله الخلق لا بد سائله

فيأخذ منه ظلمه لعباده ويجزيه بالخير الذي هو فاعله ولم أر أحداً نسب هذين البيتين إلى سابق البربري ، ولعل الدكتور العاني قد ضمها إلى القصيدة لموافقتهما وزن لامية سابق ورويا ، وهذا دليل غير كاف ، إذ ألفنا في الشعر العربي أن الشاعر ، حين يُعجب بقصيدة شهيرة فقد يحوك أبياتاً على قريتها وزناً وروياً . وفي كتب الأدب والمحاضرات أبيات أخرى على قريّ لامية سابق ، منها البيتان اللذان وردا في كتاب (محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار) ٢ : ٢٥

(٤) والقصيدة الأخيرة في كتاب « شعر الدعوة الاسلامية في العصر الأموي » هي القصيدة الهائية الشهيرة في الزهد . وعدد أبياتها في الكتاب (١٦) بيتاً . وقد بينا ذلك آنفاً (التعليق رقم 3) . أما مصادر القصيدة فهي : شرح المقامات ، وتهذيب ابن عساكر ، وروضة العقلاء ، وأدب الدنيا والدين . وقد أضاف الأستاذان الجامعان في تعليقها : (وانظر البيان ١ / ١٢٠) .

وعدتُ إلى كتاب البيان والتبيين للجاحظ لأجده يقول : « وقال أبو الحسن : خطب عبيد الله بن الحسن على منبر البصرة في العيد ، وأنشد في خطبته :

أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقياها
تلك المدائن بالآفاق خالية أمست خلاءً وذاق الموت بانيتها
وأول البيتين مما اختاره الجامعان في قصيدة سابق البربري التي أورداها في الكتاب ، أما الثاني فلم يعرض له .

وقد أورد الخبر وكيع صاحب أخبار القضاة قال (٢ : ١١٢) :
« أخبرني أبو يعلى زكريا بن يحيى بن خلاد قال : حدثنا الأصمعي قال :

خطب عبيد الله بن الحسن بالبصرة على منبرها ، فأنشد في خطبته :
 أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقياها .
 فاكتفى وكيع بإيراد البيت مفرداً .

تذييل

- عرض الأستاذ عبد الله كنون في مقالته للحديث عن ديوان سابق البربري فقال (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٤٤ : ١٩) :
 « والمعتقد أن له ديواناً شعرياً يحتوي جميع ماقاله » .
 قلت : ويعزز ماذهب إليه الأستاذ عبد الله كنون ماجاء في كتاب فصل المقال (ص ١٨٢) لأبي عبيد البكري ، تعقيباً على بيت رواه أبو عبيد (كتاب الأمثال : ١٢١) فقال : « وهو في ديوان شعر سابق البربري من قصيدة له » .

كلمة أخيرة

أشار الأستاذ عبد الله كنون في كلمته (ص ١٣) إلى كتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس » للحافظ ابن عبد البر النمري القرطبي ، وطبعته بمصر وبيروت . وزيادة في الإيضاح والتبيين أقول :
 طبع كتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس » بالقاهرة في جزأين كبيرين (سلسلة تراثنا) ، بتحقيق الأستاذ الفاضل محمد مرسي الخولي ، رحمه الله ، ومراجعة الأستاذ الدكتور عبد القادر القط .
 ثم أعيد طبعه تصويراً (مع تصغير حجمه) ببيروت (سنة ١٩٨٢ م) ، وقد أضاف المحقق مقدمة بثلاث صفحات . وصدر الكتاب في ثلاثة أجزاء : الأول والثاني منه يقابلان الجزء الأول في طبعة مصر ، والجزء الثالث منه يماثل الجزء الثاني في الطبعة المصرية .